حاشية أبي زياد النحوي
على القواعد الأربع

للإمام محمد بن عبدالوهاب
رحمه الله

الحمد لله والصلاة والسلام على رسوله -صلى الله عليه وسلم-

بعد الكلام على الأصول الثلاثة التي يحب على كل مسلم ومسلمة معرفتها وبيان معنى التوحيد وأنواعه وأقسامه ، وبيان الشرك وأنواعه ، ذكر الإمام -رحمه الله- قواعد وأصول يُميّز بها الطالب بين المسلم والمشرك ، وذلك من تمام بيان حقيقة التوحيد ...

وعدم فهم هذه القواعد يؤدي إلى اللبس والتخليط في معرفة المسلمين والمشركين ...

وفي التمييز بينهم ، لأنه ليس كل من نطق بالشهادتين يكون مسلمًا ، بل قد يكون مصلّيًا مزكيًا صائمًا ، ومع ذلك فهو من المشركين ، بل قد يكون من أهل العلم ويُحكم عليه بالشرك ..

لذلك عقد الإمام هذه الرسالة لبيان هذه القواعد التي تُميز بين المسلمين والمشركين ، ولتبين الفارق بين التوحيد والشرك ...

ولذلك التبس على بعض الطلاب بل على بعض أهل العلم أمر بعض الطغاة ، حين هلك وهو على ردته وكفره، ولكنه كان يقول لا إله إلا الله فحكموا بإسلامه ...

والسلف أجمعوا (١) على أن (لا إله إلا الله) يُحكم بإسلام قائلها إن كان كافرًا أصليًا ، وأما الكافر المرتد فلا تنفعه حتى يُصرّح بالشئ الذي كفر به وأنه رجع عنه وتاب منه ، كمن سبّ الأنبياء ، فلا تنفعه ولو كان مصليًا مزكيًا ، حتى يُصرح بتعظيم الأنبياء والإعتراف بقدرهم ، حينئذٍ حديث أسامة في الكافر الأصلي لا في الكافر المرتد ...

إذن معرفة هذه القواعد يرتفع به اللبس الذي قد يقع فيه الطالب للحق (٢) ...

- (١) مستند الإجماع حديث ابن عمر في الصحيحين "أُمرت أن أقاتل الناس ... إلخ"

وأما من كان مسلمًا ثم كفر فلابد أن يدخل الإسلام من الباب الذي خرج منه ...

- (٢) جاء في كتاب (عقيدة الشيخ محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله- السلفية وأثرها في الإسلام والعالم الإسلامي) للدكتور صالح المعبود : أن الإمام له رسالتان بنفس الإسم "القواعد الأربعة" ، الأولى مطوّلة والأخرى مختصرة ، وأن الإمام ذكر فيها أربع قواعد للتمييز بهم بين المسلم والمشرك ...

وفي الدرر السنية لابن قاسم ، خمس رسائل بنفس هذا الإسم وهذا المضمون وهو "القواعد الأربعة" ..

- والرسالة التي سأحشي عليها هي المختصرة المشهورة عند العلماء ...

قال الإمام محمد بن عبد الوهاب -رحمه الله-

(بسم الله الرحمن الرحيم)

- الشرح : افتتح الإمام رسالته بالبسملة كما هي العادة في كل مصنفاته ، ولم يذكر "الحمد لله" ولا الصلاة على النبي -صلى الله عليه وسلم - وذلك من باب تعجيل المنفعة للقارئ والطالب ...

وقد اكتفى بها لأنها من أبلغ الثناء والذكر ...

وقد فصلت القول فيها في الأصول الثلاثة وشرحها فلا حاجة للإعادة ...

- قال "أسأل الله الكريم رب العرش العظيم ، أن يتولاك في الدنيا والآخرة ، وأن يجعلك مباركا أينما كنت ، وأن يجعلك ممن إذا أُعطي شكر ، وإذا ابتلي صبر ، وإذا أذنب استغفر ، فإن هؤلاء الثلاث عنوان السعادة " ...

-الشرح : هذه هي العادة الثانية للإمام -رحمه الله- وهي الدعاء للقارئ والطالب ، وعلة ذلك : أن العلماء والدعاة يهدون الناس إلى الحق ، لكن

هدايتهم للناس إرشاد وبيان لطريق الحق وأهل العلم يُسمونها "هداية إرشاد" أو "دلالة بيان" وليس في مقدورهم حمل الناس على العمل بما بينوه من الحق ، بل هذا بيد الله تعالى وهو "هداية التوفيق" ، إذن هما هدايتان :

الأولى : هداية بيان ، والثانية : هداية توفيق ...

-أقول : لما كان الأمر بهذه الكيفية ناسب أن يدعو الأمام لطلابه بهداية التوفيق التي لا يملكها إلا الله وحده ، هذا حرصًا من الإمام على هداية طلابه وعموم المسلمين ...

- قوله "أسأل الله العظيم" أي أطلب من الله ، فالسؤال هو (الطلب) ...

"الله" : لفظ الجلالة علم على ذاته الرب جلّ وعلا ومعناه : المعبود بحق ...

وأصله : الإله على وزن فيقال بمعنى مفعول ككتاب بمعنى مكتوب والمعنى : المعبود ، مأخوذ من : أَلِه يَألَه إِلاهة بمعنى : عبد يعبد عبادة ، فالإله هو المعبود ...

والصحيح أنه مشتق كما سبق بيان اشتقاقه ، ومعنى كونه مشتقًا أي : دالّ على ذات وصفة ، والصفة أنه : مألوه أي معبود ...

وقيل إنه (جامد) يعني دال على ذات فقط ، كما نقول جدار وفرس ...

والصواب أنه مشتق ، وهو قول الجمهور وبه قال سيبويه ...

والقول بأنه جامد باب لنفي الصفات ...

ولفظ الجلالة "الله" يدل على أنواع التوحيد الثلاثة ، فكونه معبودًا يستلزم أن يكون خالقًا رازقًا مدبرًا لشئون عباده وإلا لما استحق أن يُعبد ، لأننا نعبد الله لأنه رب العالمين ، ونستدل على بطلان عبادة غيره بأن غيره لا يخلق ولا يرزق ، بل مخلوق مربوب ...

وهو الجامع لمعاني الأسماء والصفات كلها ، فكل إسم وصفة داخلة في لفظ الجلالة "الله" ، ولهذا يأتي لفظ الجلالة "الله" متبوعًا لا تابعًا ، ولهذا لا يُنعت به ، لأن النعت يأتي للكشف وللإيضاح ويأتي للاحتراز (١) ، وقوله

تعالى "صراطِ العزيزِ الحميدِ اللهِ " بالخفض ، هنا "الله" بدل ولا يجوز نعتًا ، لأنه متبوع لا تابع .

- "الكريم" وهو الجوّاد في لغة العرب ...

وهو "العزيز" وهو "الصفوح" كما قال الزجاجي ...

والإسم وإن كان له معان متعددة نحمله عليها كلها إلّا إن كان هناك تعارض فنذهب إلى الترجيح بقرينة ، فإن لم تكن قرينة فلا ترجيح ونحمله على كل المعاني ...

قوله "ربّ العرش" العرش هو أكبر المخلوقات وأعظمها وعليه استوى ربنا استواءً يليق بجلاله ، وله قوائم ويحمله ملائكة موكلون بذلك ...

- وجاء ذكر القوائم في البخاري : "الناس يُصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق ، فاذا انا بموسي آخذ بقائمة من بقوائم العرش ، فلا أدري أفاق قبلي أم جوزي بصعقة الطور" ...

وهو غير الكرسي ، فالكرسي موضع قدم الرحمن ...

وبعضهم فسر الكرسي بالعلم والصواب ما حررناه ...

----

(١) الصفة الكاشفة : هي التي تدل على أن هذا الوصف لازم ولا ينفك عن صاحبه ، مثالها "اعبدوا ربكم" ثم وصفه بقوله "الذي خلقكم" ، فهذا وصف كاشف وموضح لصفة الرب الذي أمرنا أن نعبده في الآية ، وهو نفسه تعالى الذي أمرنا ...

والصفة المقيدة مثل : رأيت زيدًا الطويل ، احتراز من القصير ..

والوصف الكاشف لبيان الواقع ...

بعد ما ذكر الإمام -رحمه الله- مقدمة اشتملت على البسملة والدعاء للقارئ والطالب ، ذكر مقدمة ثانية قبل الدخول في بيان القواعد الأربع التي يُميّز بهم الطالب بين المسلمين والمشركين ، وهي مقدمة مشتملة على بيان ملة إبراهيم ومعرفة التوحيد والشرك ، لأنه قبل تقعيد القواعد لابد من بيان ما هو التوحيد وما هو الشرك ، لأن الحكم على الشئ فرع عن تصوره ، فمن عرف التوحيد عرف من هو الموحد ومن عرف الشرك عرف من هو المشرك ...

حينئذٍ : إن أردت أن تحكم على أحد بأنه مسلم فلابد أن تعرف ما هو الاسلام وما هو التوحيد ، وإذا أردت ان تحكم على أحد بأنه مشرك فلابد من معرفة الشرك ..

وإذا اتضحت صورة التوحيد عرفنا الشرك بأجزائه وصوره ...

ولهذا قال بعضهم : وبضدها تبين الأشياء ..

وقال آخر :

عرفته الشر لا للشر ولكن لتوقيه

من لم يعرف الخير من الشر يقع فيه

- حينئذٍ : معرفة التوحيد تؤذن بمعرفة الشرك ، لأنهما نقيضان والنقيضان لا يجتمعان ، فلا يقال أن الرجل الواحد قائم جالس ، نائم مستيقظ ، وكذلك لا يقال موحد مشرك ، إما التوحيد وإما الشرك ، فهما نقيضان ولا يجتمعان ...

وكذلك لا يرتفع الوصفان ، فلا هو موحد ولا مشرك ، لابد من ثبوت وصف ، أما أن ينعدم الوصفان فلا ...

فإذا ثبت كونهما نقيضين ولا يجتمعان فالحاجة إلى قواعد للتمييز بينهما والأمن من اللبس مهمة ...

قال "اعلم أرشدك الله لطاعته" هذه دعوة بعد الدعوة الأولى ...

"أرشدك" من الرشد وهو ضد المعنى ، والرشد هو الهدى والفلاح ..

والمراد : وفقك إلى الخير والعمل بما يحبه ويرضاه ..

"لطاعته" أي إلى طاعته ، والطاعة موافقة أمر الشرع اختيارا ، ولابد فيها من شرطي الإخلاص والاتباع ، والطاعة والعبادة بمعنى واحد عند ابن تيمية ...

وطاعة الرسول -صلى الله عليه وسلم- ليست مستقلة ، إنما تابعة لطاعة الله جل وعلا ...

قال تعالى "من يطع الرسول فقد أطاع الله" ...

والقربة : هي (موافقة أمر الشرع بنية التقرب) لابد من النية ، بخلاف العبادة والطاعة فقد تفارقها النية وتُجزئ مثل ترك المحرمات ...

قال "أن الحنيفية ملة إبراهيم" ...

الشرح : الحنيفية مصدر صناعي لم يُسمع من العرب والأصل حنيف وزِيد ياء النسبة وتاء المصدر ، يُقال فلان فيه حنف : أي ميل وهنا الحنيفية أي الميل ، ولكنه ميل خاص وهو الميل من الشرك إلى التوحيد ، والحنيف : المائل إلى التوحيد مع الثبات عليه ، فلا يكون حنيفا إلا إذا ثبت على التوحيد وأشار إليه ابن القيم ...

والحنيفية هي الملة المائلة عن الشرك إلى التوحيد ، وهي ملة إبراهيم وهي مركبة من شيئين : عبادة وإخلاص ، فإذا انتفت العبادة أو الإخلاص أو كلاهما فقد انتفت الحنيفية ...

و "الملة" هي الطريقة والشرعة والمنهاج ، يقال ملة فلان كذا : أي شرعته ونحلته ، والحنيفية والملة بمعنى واحد شرعا ، بمعنى : الشريعة والمنهاج كلاهما ..

وأما في اللغة فالحنيفية هي الميل ، والملة هي المنهاج والشرعة ...

قال " أن تعبد الله" أي : عبادة الله ، هنا فسّر الحنيفية ملة إبراهيم بأنها : عبادة الله ..

والعبادة لابد فيها من إخلاص واتباع وإلّا فسدت ...

والعبادة تُطلق ويراد بها معنيان : الأول : المعنى المصدري وهو الدلالة على الحدث وهو التعبد يعني التذلل لله بفعل ما أمر وترك ما نهى محبة له وتعظيمًا ...

وهي بهذا مبنية على ركنين : الحب والذل والمراد غاية الحب وغاية الذل :

وعبادة الرحمن غاية حبه

مع ذل عابده هما ركنان

وبهذا عرفها ابن كثير والقرطبي رحمهما الله ...

والمرجئة قالوا هي الرجاء فقط وبهذا ضيعوا الدين وضيعوا الأوامر والنواهي وارتكبوا ما يغضبه ثم رجوا رحمته ، والخوارج فسّروها بالخوف حتى كفّروا مرتكب الكبيرة ، والصوفية فسّروها بالمحبة فتزندقوا ، والصواب أن تفسّر بالحب والرجاء والخوف ، ولهذا قال السلف : من عبد الله بالخوف فهو حروري ، ومن عبده بالرجاء فهو مرجئ ، ومن عبده بالحب فهو زنديق ، ومن عبده بالمحبة والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد ...

والإطلاق الثاني للعبادة (١) : تفسيرها بالمتعبد به ، أنت تعبد الله بالصلاة والصيام ... إلخ

وهذا تفسير شيخ الاسلام ابن تيمية ...

----

(١) عبّر بعضهم بأنها "عبادة بالمعنى الإسمي" فالصلاة إسم لما تتعبد به لله تعالى ...

قال "أن تعبد الله وحده" فسّر الحنيفية بأنها عبادة الله وحده ...

- والمعنى أن يكون الله جلّ وعلا منفردًا بالعبادة بلا شريك ، لأن العبادة قد تكون مع الإخلاص وقد تكون من غير إخلاص ، كمن صلى لله ثم أطال الصلاة لرؤية الناس له ، هذا عبد الله ولم يجعله منفردًا ، لماذا ؟ لأنه صرف لغير الله سبحانه ما هو حق لله ، فسوّى بين الخالق والمخلوق ...

وكمن صلى لله وصام لله ثم تحاكم إلى غيره ، هذا لم يعبد الله منفردا ، بل وزّع العبادة بين الخالق والمخلوق ...

إذن : وحده : أي منفردًا ، فلابد من إفراد الله تعالى بالعبادة ...

قال "مخلصًا" هذا تأكيد للمعنى الذي سبق ، و "مخلصًا" اسم فاعل وهو بهذا وصف ، بمعنى : أن يكون الإخلاص وصفًا ملازمًا لك وإلّا فالشرك وصفك ...

والإخلاص : هو الخالص الصافي من شوائب الشرك ..

ولهذا يُقال : هذا لبن خالص ، أي : لم يشبه شئ ، وهو حبّ الله وإرادة وجهه ، والمعنى : أن تريد بعبادتك وجه الله تعالى لا أحدا سواه ...

إذن أن تعبد الله مخلصًا : هذا حال من فاعل التعبد ، والحال وصف لصاحبه ...

قال "مخلصًا له الدين" أي مخلصًا له العمل ، فالدين هنا هو العمل ...

والعمل له ثلاث محال : القلب واللسان والجوارح ، والمعنى : أن يكون متعبدًا لله بقلبه وجوارِحه مُفرِدًا إياه بذلك ...

وابن القيم يقرر أن واجبات القلوب أكثر من واجبات الجوارح ، ومحرمات القلوب أكثر من محرمات الجوارح ...

وقال كما قال تعالى "وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " الآية ..

أي : إلا ليوحدون .

والآية تضمنت أمرين :

الأول : بيان الحكمة من الخلق ، والثاني : العمل بهذه الحكمة ..

فبيان الحكمة يقتضي العمل بها وإلّا كان الإخبار عبثًا ، والعبث مُحال في حق الله جلّ وعلا ...

قوله "ليعبدون" هذه لام الحكمة والعلّة ...

والمعنى : يفردوني بالعبادة ، وبعضهم قال : ليوحدون ، فكل أمر في القرءان "اعبدوا الله" وحدوه ، كما قال ابن عباس ...

قال "فإذا عرفت أن الله خلقك لعبادته" أي : إذا عرفت هذه المقدمة ، "فاعلم" علمًا جازمًا بأن العبادة الشرعية المأمور بها (لا تُسمّى عبادة) أي : صحيحة مقبولة ، إلا بشرط وهو : التوحيد ، "إلا مع التوحيد" ، ومع هنا للمصاحبة أي : إلا مع مصاحبة التوحيد ...

حينئذٍ : التوحيد شرط في صحة العبادة وتخلف الشرط يستلزم تخلف المشروط ، كالطهارة بالنسبة للصلاة ، ودليل الشرطية والتلازم قوله تعالى "واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا" الآية ، هنا أمر بالعبادة "واعبدوا الله" أي : تذللوا له بفعل طاعته ، " ولا تشركوا به شيئا" هذه تدل على أن العبادة المأمور بها لا تصح ولا تسمّى عبادة إلا إذا اجتنب الشرك ، فإذا خالطها الشرك أفسدها كما يفسد الحدث الصلاة وسيذكر ذلك الإمام -رحمه الله- ...

وقد جمع الله بين العبادة والنهي عن الشرك في الآية وقرن بينهما ، والإقتران دليل على أن الثاني شرط في صحة الأول ، الثاني النهي عن الشرك ، والأول الأمر بالعبادة ، فصحة العبادة موقوفة على ترك الشرك واجتنابه ...

وكون التوحيد شرط في صحة العبادة نقول : هو إجماع قائم ذكره العلماء ..

والمراد بالتوحيد هو توحيد الألوهية ، وهو "إفراد الله بالعبادة" ...

وهو يتضمن توحيد الربوبية ويستلزمه ، فأنواع التوحيد متلازمة قطعًا ..

والتوحيد سُمي بذلك لأنه مشتق من الوحدة ، نقول : جاء زيد وحده : أي منفردا ، والوحدة هي الانفراد ، والتوحيد على صيغة التفعيل ، والمراد به النسبة ، يعني : نسبة الرب جل وعلا إلى الوحدانية ، لأن المراد بالوحدة في اللغة : جعل الشئ واحدًا ، وهل أنت تجعل الله واحدًا ؟ ، نقول : لا ، لأن الوحدة صفة أزلية ، قال تعالى "الله أحد" "هو الواحد القهار" ، إذن : هو متصف بالإنفراد والوحدة ، ولهذا فهي ليست بجعل جاعل ولا بفعل فاعل ، إذن وحدت الله : نسبته إلى الوحدانية ، وهذه النسبة قلبية ، يعني متعلقها القلب ، فإن تعلق القلب بالربوبية فهذا توحيد الربوبية ، وإن تعلق بالأسماء والصفات ، فهذا توحيد الصفات ، وإن تعلق بالألوهية فهذا توحيد الألوهية ، إذن هي قسمة ثلاثية ...

قال "كما أن الصلاة" الكاف هنا للتنظير ، نظّر الإمام للطالب ليفهم ويقبل ويتصور ، والتنظير هو التمثيل ، فكما أن الصلاة المشروعة التي أمرنا بها الشرع "لا تُسمّى صلاة" أي : صحيحة مقبولة ، "إلا مع الطهارة " أي : من الحدثين الأكبر والأصغر ، قال "فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت ، كالحدث إذا دخل في الطهارة" ، إذن : هذا مثال بمثال ، الطهارة تُفسد بالحدث ، ومثالها العبادة تُفسد بالشرك ...

وقد يضجر بعض الناس عن إدراك ذلك ، يقولون : هذا صوّام قوّام عالم يحفظ البخاري ويُفتي ويُعلّم ، فكيف تقول مشرك ؟! ...

نقول : كما حكمت بفساد الصلاة لمن أحدث وهذا دليله الشرع ، فكذلك نحكم ببطلان العبادة لوجود الشرك وانتفاء التوحيد ولا نُبالي بالنظر إلى المخلوق ...

- قال "فإذا دخل الشرك" يعني : الأكبر ، ف (أل) عهدية ، والشرك هو(دعوة غير الله مع الله) ، نقول : إذا دخل الشرك في العبادة أبطلها ، كالحدث إذا دخل في الصلاة ...

- قال "فإذا دخل الشرك في العبادة فسدت ، كالحدث إذا دخل في الطهارة" والدليل قوله تعالى "لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين" ...

- قال "فإذا عرفت أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار " ...

وذلك للنصوص الدالة على ذلك في حق من أشرك ، والمراد من وقع في الشرك الأكبر ..

- قال "عرفت" أي : عرفت أيها الطالب والقارئ بعد هذه المقدمات التي بنيتها لك ، وهي بيان التوحيد والشرك وأن العبادة هي التوحيد ، وأن الشرك إذا دخل في العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبها من المشركين المخلدين في النار ، قال "عرفت ان أهم ما عليك" أي : ما يلزمك أن تعرفه ، وهو الشرك الذي يُحبط العمل ، ويُخلّد صاحبه في النار ...

لأنه لا نجاة إلا بالتوحيد ، ولا يتحقق التوحيد إلا بترك الشرك ..

قال "عرفت أن أهم ما عليك معرفة ذلك" أي : معرفة الشرك الذي يُحبط العمل ، "لعل الله" هذا رجاء ، "أن يُخلصك" أي : يُنجيك ، "من هذه الشبكة" يعني : شبكة الشرك ، قال "وهي الشرك بالله الذي قال الله تعالى فيه (إن الله لا يغفر أن يُشرك به ويغفر ما دون ذلك) " يعني : لا يغفر إشراكًا به سواء كان كبيرًا أو صغيرًا وهو ظاهر الآية ...

لكن الشرك إذا أطلق في الكتاب والسنة نحمله على الشرك الأكبر إلا بقرينة تصرف الشرك من الأكبر إلى الأصغر ...

حينئذٍ نقول : هذا عام أريد به الخصوص ، وأما الشرك الأصغر فصاحبه تحت المشيئة ...

قال "وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه " وذلك أي المُشار إليه وهو : الخلوص من شبكة الشرك ، "قواعد" جمع قاعدة وهي الضابط والأصل والأساس ...

وهنا قال "ذكرها الله تعالى في كتابه " يعني ليس من اجتهاده ، بل كلها مجمع عليها ، إلا القاعدة الرابعة التي هي أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من للمشركين الأوائل ...

قال "القاعدة الأولى : أن تعلم أن الكفّار الذين قاتلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- مقرون أن الله تعالى هو الخالق المدبر ، وأن ذلك لم يُدخلهم في الإسلام ، والدليل قوله تعالى (قل من يرزقكم من السماء والأرض . أمن يملك السمع والأبصار . ومَن يُخرج الحيّ من الميّت ويُخرج الميّت من الحي ومن يُدبر الأمر . فسيقولون الله قل أفلا تتقون) آية ٣١ سورة يونس"

- الشرح : بيّن الإمام -رحمه الله- حقيقة ملة إبراهيم وأنها عبادة الله وحده بالإخلاص ، وهذا محل وِفاق بين الرسل ، بل هو دعوة كل الأنبياء والمرسلين ..

وإنما النزاع الذي وقع بين الرسل وأقوامهم في توحيد الألوهية أو قل العبودية ، وهو "إفراد الله بالعبادة" ...

- فلما لم يكن النزاع بين الرسل وأقوامهم في الإعتراف بأن الله هو الخالق الرازق ، حينئذٍ كان التوجه إلى ماذا ؟ إلى صرف العبادة لغير الله تعالى ، فلمّا صُرفت إلى غير الله تعالى ، إلى الأوثان والأصنام والأغيار ، حينئذٍ وقع الصدام والنزاع بين الرسل وبين أقوامهم فيمن تُصرف له العبادة ...

ولم يكن النزاع فيمن هو الخالق أو القادر على الإختراع كما يقوله الأشاعرة والمتكلمون ، حينئذٍ لما حرّفوا مفهوم التوحيد الذي دلّت عليه لا إله إلّا الله وهو "إفراد الله بالعبادة" حرّفوه إلى ماذا ؟ إلى فرد من أفراد الربوبية وهو القدرة على الخلق والتفرد بذلك ، نقول : حين فسّروا التوحيد بأنه توحيد الربوبية ضلوا وأضلوا ، لأنهم جوّزوا صرف العبادة لغير الله ، لأن المشرك الذي يدعو غير الله تعالى لا يكون بشركه مناقضًا ل (لا إله إلّا الله) لأنه يعتقد بقلبه مدلولها الذي فسّروها به وهو "القادر على الإختراع" ، وهذا باطل بالكتاب والسنة والإجماع ...

لأن الإله هو المعبود و (لا إله إلّا الله) لا معبود بحق إلا الله ، فمن صرف العبادة لغير الله فقد نقض المدلول الذي دلت عليه وصار مشركًا وعابدًا لغير الله تعالى ...

لهذا نص الإمام -رحمه الله- على أن التوحيد هو "إفراد الله بالعبادة" ومراده بذلك توحيد الألوهية الذي وقع النزاع فيه ، ولهذا ذكر هذه القواعد الأربع لبيان هذه الحقيقة حتى لا يلتبس الشرك بالتوحيد وحتى يظهر مذهب المسلمين ومذهب المشركين ...

وهذه القواعد التي ذكرها مُجمع عليها ومتفق على ثبوتها إلا القاعدة الرابعة فإنها قد يقع فيها النزاع لأنها اجتهادية ...

- وقوله "ذكرها الله في كتابه" إشارة إلى أن التوحيد وإن دلّ عليه العقل على جهة الإجمال ، إلا أنه لا يُعرف على جهة التفصيل إلا من الكتاب والسنة ...

لذلك نقول : العقل والفطرة من أدلة التوحيد ، لكن الحجة تقام على الخلق بماذا ؟ الجواب : بالوحي ، بالكتاب والسنة "رسلًا مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل" الآيات ، وقوله "وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا" الآية ...

قال "القاعدة الأولى" أي : الأصل الأول ، وهذه قاعدة يقينية قطعية ، مأخوذة من استقراء الكتاب والسنة ، من آيات متعددة وأحاديث متعددة ، ومن سيرة النبي -صلى الله عليه وسلم- وغزواته وحروبه مع المشركين ومن حال العرب المشركين أنفسهم ، ولهذا نقول هذه قاعدة يقينية قطعية وليست اجتهادا ...

قال "أن تعلم" أي : علمًا جازمًا لا يحتمل النقيض ، لأن القواعد إنما تُبنى على الأدلة القطعية ...

قال "أن الكفار" والمشركين وهما مترادفان عند العلماء ، والبعض يُفرق بينهما ، إذن هي مسألة خلافية ، يُقال إن كل مشرك كافر ولا العكس ، ولكن استعمال اللفظين في الكتاب والسنة على جهة الترادف ، فمن كفر ومات على كفره فهو مخلد في النار ، ومن أشرك ومات على شركه فهو مخلد في النار ، حينئذٍ لا يترتب على الفرق بينهما ثمرة في الآخرة ، وكل خلاف لا يترتب عليه ثمرة صار خلافًا لفظيا ...

وكذلك في الدنيا ، فكلاهما مرتد ، وتُجرى عليه أحكام واحدة من عدم التوارث والنكاح وغير ذلك ، فكلها تثبت على الاثنين بلا فرق ...

وقوله "الكفار" هم مشركو العرب الذين قاتلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ..

قال "الذين قاتلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم-" أي : أمره الله بقتالهم "أُمرت أن أقاتل الناس .. إلخ" ..

"مقرون" اسم فاعل من أقرّ وهو الاعتراف باللسان ، وهم مقرّون بألسنتهم ما اعتقدوه بقلوبهم ، "بأن الله تعالى هو الخالق المدبر" وهنا ذكر أصلين من أصول الربوبية ، ولم ينكر أحد في الخلق ربوبية الله تعالى إلا شواذ من الناس ، الشيوعية الآن وفرعون ولكنهما أنكرا باللسان فقط واستيقنت أنفسهم بهذه الربوبية "وجحدوا بها" أي بالربوبية "واستيقنتها أنفسهم" الآيات ...

والخالق اسم علم على ذات الله سبحانه ، ودلّ على صفة الخلق ، والمدبر : الذي بيده أزمة الأمور ومقاليدها ، كما قال تعالى "يدبر الأمر من السماء إلى الأرض" الآيات ..

والمدبر ليس إسمًا لله تعالى ، إنما هو إخبار عنه أنه يدبر شئون عباده ، فهو إذن صفه له تعالى ...

وباب الصفات أوسع من باب الأسماء لماذا ؟ الجواب : لأن الصفة تؤخذ من الإسم ومن الفعل ، وباب الإخبار أوسع من باب الصفات ، حينئذٍ : الكفار أقروا ببعض أفراد الربوبية ولم يؤمنوا بها على سبيل التمام ...

- قال "وأن ذلك" أي : الإقرار ببعض إفراد الربوبية "لم يُدخلهم في الإسلام" بل بقوا على كفرهم وشركهم وقاتلهم واستباح دمائهم وأموالهم وسبي نسائهم وذراريهم ولم ينفعهم إقرارهم هذا ...

حينئذٍ نقول : توحيد الربوبية فقط لا تكون به عصمة الدم والمال ، لأن المشركين أقروا به ومع إقرارهم هذا قاتلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ولم يحقن دمائهم ..

بل العصمة للدم والمال تكون بالإقرار بتوحيد الألوهية ..

بل لم يخل مشرك من توحيد الربوبية من عهد نوح إلى عهد محمد عليهما الصلاة والسلام ، حينئذٍ : هذه القاعدة "توحيد الربوبية لا يكفي لحقن الدماء" هي قاعدة قطعية يقينية ، ثبتت بالقطع بالأدلة من الكتاب والسنة وأحوال الرسول -صلى الله عليه وسلم- ، ثم ذكر الآية دليلًا على هذه القاعدة ...

ويرد إشكال وهو : نحن نقول (أنواع التوحيد متلازمة) بحيث إذا وُجد نوع منها لزم أن يوجد الآخر لأنعا متلازمة لا ينفك أحدها عن الآخر ...

فكيف نقول إن الكفار المشركين أقرّوا بالربوبية وهم مع ذلك لم يقروا بالألوهية ؟ الجواب : إقرارهم بالربوبية ليس على الوجه التام الذي يستلزم الألوهية ، بل المراد أنهم أقرّوا ببعض مفرداتها كما قال أهل العلم وهو ظاهر القرءان ...

هم أقروا ببعض المفردات كالخلق والرزق والتدبير ، وأما على التفصيل فلا ، لأنهم أشركوا في الربوبية كما ذكر تعالى في كتابه ، فالذي يستغيث بالنبي أو الولي لرفع البلاء والكرب لابد أنه يعتقد فيه أنه عنده قدرة على النفع والضر ، وأن له سمعًا مطلقًا يسمعه به فلذلك دعاه ، وهذا متعلق بالربوبية ..

إذن نقول : هم أقروا ببعض أفراد الربوبية وإقرارهم ناقص وهذا إجماع لا يُعرف له مخالف ...

ومن هنا نعلم فساد مذهب الأشاعرة والصوفية ومن تبعهم الذين عرفوا التوحيد بقولهم(واحد في ذاته فلا قسيم له ، واحدًا في صفاته فلا شبيه له ، واحدًا في أفعاله فلا شريك له) ...

على هذا التعريف صار أبو جهل مؤمنًا لأنه يقول لا خالق إلا الله ، والأشاعرة يفسّرون (لا إله إلا الله) لا خالق إلا الله ، فالشرك حينئذٍ هو : قول الرجل : فلان يخلق مع الله ويرزق مع الله ، وبهذا لن تجد مشركًا على وجه الأرض والسبب ماذا ؟ الدخول في علم الكلام الذي أفسد التوحيد وأضل الخلق ...

- حينئذٍ الخلاصة : (توحيد الربوبية لا يكفي للدخول في الإسلام) ..

وقد يقول البعض في سؤال القبر (من ربك) هذا سؤال عن الربوبية ؟
الجواب : لا ، لو قلنا نعم هدمنا القاعدة والإجماع ، ولكن الرب في الشرع هو المعبود ، والدليل "إن الذين قالوا ربنا الله" أي معبودنا الله ، وإلا كان عبثًا ...

فالرب في الشرع هو الإله ، فإذا أطلق أحدهما دل على معناه وعلى الآخر ، كلفظ الإسلام والإيمان ، إذا أطلق أحدهما شمل الآخر ودل عليه ، والله أعلم ...

القاعدة الثانية : "أنهم يقولون : ما دعوناهم وتوجّهنا إليهم إلا لطلب القربى والشفاعة" ..

لما أثبت في القاعدة الأولى أنهم يقرون ببعض أفراد الربوبية أو بمجمل الربوبية ، وأن ذلك لم يُدخلهم في الإسلام ولم يعصم دمائهم ، وفي القاعدة الثانية أثبت أنهم يقرون بشئ من توحيد الألوهية ، وأنهم يتوجهون إلى هذه المعبودات لتقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده ، هذا مع إقرارهم بأن الله هو المعبود ، لذلك عبدوا الله تعالى فحجّوا وطافوا ونذروا واغتسلوا من الجنابة كما ذكره ابن تيمية ، لكنهم حرّفوا بعض أنواع العبادات أو معظمها إلى الأصنام والأوثان ، وقالوا : لا نعبدها ، بل نتقرب إليها لتقربنا إلى الله ولتشفع لنا عنده ...

حينئذٍ نقول : المشركون توجهوا للآلهة لسببين :

١) طلب القربة ٢) الشفاعة

إذن : قد عبدوا آلهتهم تبعًا لا استقلالًا ، لا لأن آلهتهم تستقل بالربوبية والألوهية ، بل أقرّوا بالألوهية الحقة ، ولكن أثبتوا آلهة مع الله وعبدوها لطلب القربى والشفاعة من الإله الحق ...

ولذلك قالوا "أجعل الآلهة إلها واحدًا" الآية ..

وهذا نص أنهم أقروا بأن الله مألوه ، وإقرار بألوهية الأصنام التي عبدوها ، فجمعوا بين الآلهة كلها وعبدوها ، عبدوا الله وعبدوا غيره معه وهذا هو

الشرك ، "أجعل" يعني لما قيل لهم "لا إله إلا الله" فهموها وأن معناها التبرؤ من كل المعبودات الباطلة وصرف العبادة لإله واحد لا شريك له ...

"أجعل الآلهة" كل الآلهة ، "إلها وحدًا" إذن هم فهموا المراد ، لذلك هم أعلم بهذه الكلمة من الأشاعرة والصوفية وأهل البدع ، الذين يفسّرون التوحيد بأنه القدرة الإختراع ، "فلا إله إلا الله" لا خالق إلا الله ولا رازق إلا الله ، هذا عندهم وهذا تحريف، لأن تفسيرهم هذا قال به المشركون وأقروا به و مع ذلك قاتلهم رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ...

إذن هم أقروا بالربوبية مجملًا وبالألوهية وفهموا "لا إله إلا الله" ولكنهم صرفوا الطاعات والقربات لهذه الأصنام وعبدوها ، لأنهم اعتقدوا أنها ستقربهم إلى الله وتشفع لهم عنده والآية نص صريح في هذا ...

لكنهم لم يعبدوها استقلالًا لأنها عندهم لا تخلق ولا ترزق ، فإنها تُعبد تبعًا لأنها وسائط بينهم وبين الله تعالى ، وهذا شرك الأوّلين ...

والذي أوقعهم في هذا الشرك هو القياس ، قاسوا الخالق بالمخلوق حيث قالوا : الملك من ملوك الدنيا أو مَن له شأن فيها ، لا يُدخل عليه مباشرة بل لابد من واسطة عنه يُقضي الحاجات ، وهكذا الإله المعبود لا ندخل عليه لقضاء الحوائج إلّا بواسطة واعتبروا ذلك تعظيمًا لله تعالى ...

وهذه تسوية للخالق بالمخلوق ، لذلك عرف ابن القيم الشرك بأنه : "تسوية الخالق بالمخلوق" أو "تشبيه الخالق بالمخلوق" وقد بينا معناه ...

ومنه قوله تعالى "تالله إن كنا لفي ضلال مبين . إذ نسويكم برب العالمين" الشعراء ، إذن : هم قاسوا رب العالمين بالمخلوق الضعيف ...

قال "القاعدة الثانية" أي : هي بيان حجة المشركين وما سبب وقوعهم في الشرك ، "ما دعوناهم" أي : ما توجهنا إليهم وسألناهم قضاء الحاجات إلا لطلب القربى والشفاعة ، كما قال تعالى "والذين اتخذوا من دونه أولياء . ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى" الآيات ، وقوله "نعبدهم" الضمير (هم) في الأصل للعقلاء ، والأصنام لا تعقل فلماذا عبر بهم ؟ الجواب :

لأنهم يعتقدون تناسخ الأرواح وأن أرواح الملائكة والصالحين تحل في الأصنام ، فلهذا عبر ب (هم) والأصل "عبدناها" ...

فلهذا رُعي الأصل وهو أنهم عبدوا الملائكة وهم عقلاء والرسول وهو عاقل والصالحين وهم عقلاء ..

فكل ولي صالح اتخذوه واسطة ولكن يوجد أصنام غير عقلاء توجهوا لها ولكن الأغلب الأعلم عقلاء فلهذا عبر "بهم" ولم يلتفت للقليل ...

قال "إلا لطلب القربى والشفاعة" أي هم وسائط لا غير ، فلم نعبدهم استقلالًا ، بل لطلب القربى وليشفعوا لنا ..

والقربة هي (الحظوة والمكانة والمنزلة) وبهذا عبدوا أصنامهم وآلهتهم لتتوسط لهم عند الله تعالى في رفع منزلتهم ولتجعل لهم خطوة ومكانة عند الله تعالى ، وهذا لا يستلزم رفع الحوائج وقد يكون ذلك لطلب مكانة ومنزلة عند الله فقط ...

وأما الشفاعة فهي (التوسط للغير بجلب منفعة ودفع مضرة) ...

إذن : المشركون توجهوا للأصنام لطلب القربى والشفاعة ...

قال "فدليل القربة" أي من القرءان ، قوله تعالى "والذين اتخذوا من دونه" أي : من دون الله ، "أولياء" هم الأصنام والملائكة والأنبياء ..

"ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه مختلفون" هذه الآية نص على أن الكفار والمشركين عبدوا الأصنام بحجة وشبهة زائفة ، وهي أنها تقربهم إلى الله زلفى أي مكانة ومنزلة وتشفع لهم عنده ، فاتخذوا ما ليس سببًا سببًا ، فأوصلهم وأوقعهم في ماذا؟ في الشرك الأكبر ...

كالذين اتخذوا المجالس الشركية سبيلا وسببًا إلى إقامة دولة الاسلام فوقعوا في الكفر بذلك ، وقد أشار إلى هذا المعنى الطبري -رحمه الله- معنى الآية ...

ونقل ابن كثير عن زيد بن أسلم وغالب المفسرين أن قوله تعالى "زلفى" أي ليشفعوا لنا عند الله ، والآية فيها محذوف مقدر وهو "قالوا" "ما نعبدهم" ..

إذن "نعبدهم" في محل نصب مقول القول ، وفيها حصر وقصر ، أي التأكيد على أنهم ما عبدوهم إلا لطلب الشفاعة والقرب ...

حينئذٍ نقول : أراد المشركون أن يصلوا إلى الله تعالى ، فاتخذوا سببًا لم يشرعه لهم فكفروا بذلك وأشركوا ، وقد جعل الله تعالى للوصول إليه أسبابًا ، هي توحيده وعبادته فلا يُتوصل إليه إلا بها ...

ولهذا فكل سبب لا يقره الشرع فهو ممنوع قطعًا ...

قال "ودليل الشفاعة" أي من القرءان ، قوله تعالى "ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم . ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله" يونس ...

"ويعبدون من دون الله" أي : المشركون يصرفون العبادات لآلهتهم وأصنامهم و "يقولون" أي يعللون ذلك بأن "هؤلاء" الأولياء كما في الآية السابقة ، "شفعاؤنا عند الله" أي : أنهم سيشفعون لهم بهذه العبادة عند الله تعالى ...

وهم معترفون أن هذه الأصنام لا تملك لنفسها فضلًا عن غيرها ضرًا ولا نفعًا ...

وهذه هي الشفاعة المنفية لأنها شركية ، طلبوا الشفاعة بالشرك ...

"والشفاعة شفاعتان" الشفاعة هي التوسط للغير لجلب منفعة أو دفع مضرة و هي قسمان باستقراء النصوص كما بيّن أهل العلم ..

قال "شفاعة منفية وشفاعة مثبتة" فأما المنفية فقال عنها "فالشفاعة المنفية" هي ما نفاها الله عز وجل ، وحكم عليها بالبطلان ، كما قال تعالى "ولا يشفعون إلا لمن ارتضى" الآية ، وقوله "ولا شفاعة" الكرسي ، هذه هي الشفاعة المنفية في كتاب الله ...

و "شفاعة مثبتة" وهي ما أثبتها القرءان بشروطها ، إذن هما نقيضان شفاعة نفاها وأبطلها وشفاعة أثبتها بشروطها ...

قال "فالشفاعة المنفية ما كانت تُطلب من غير الله" أي التي تطلب من غير الله سبحانه ..

"فيما لا يقدر عليه إلا الله" ، الشفاعة طلب و سؤال والسؤال دعاء ، والله تعالى يقول "ادعوني" أي : دعاء مسألة ودعاء عبادة ، والسؤال نوعان : "يعني الشركية" ، أحدها : سؤال الميت أو الحي الغائب وهذا شرك أكبر سواء سأله فيما هو من قدرة البشر فعله أو لا يقدرون على فعله ...

الثاني : سؤال الحي الحاضر مالا يقدر عليه إلا الله كمغفرة الذنوب وشفاء المرضى وهذا شرك أكبر ، أما لو سأله ما يقدر عليه على اعتبار أنه سبب فلا بأس ...

إذن : الشفاعة التي نفاها الله تعالى هي طلب مالا يقدر على فعله إلا الله تعالى سواء كانت من ميت أو من حيّ غائب أو حيّ حاضر فهذه شرك أكبر ، مثل مغفرة الذنوب وشفاء المرضى وسعة الرزق وغير ذلك من أفعال الربوبية ، ويدخل في ذلك من سأل ميتًا شيئًا يقدر عليه لو كان حيًّا ...

والدليل "أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة" الآية ..

في الآية أمر بالإنفاق قبل يوم القيامة الذي لا ينفع فيه كل هذا المذكور في الآية ، ومنه "ولا شفاعة" أي ولا تنفعكم شفاعة كائن من كان ، هذه منفية ..

قال "والشفاعة المثبتة هي التي تُطلب من الله" كأن تقول : اللهم شفّع فينا نبيك -صلى الله عليه وسلم- ، اللهم شفّع فينا وليّك فلانًا (أبا بكر) مثلا ...

إذن الشفاعة سؤال وطلب فهي عبادة ولهذا صرفها لغير الله تعالى عبادة لمن صُرفت له ، فهذا شرك أكبر ...

الموحد يقول : اللهم شفّع فيّ نبيّك ، والمشرك يقول : اشفع لي يا رسول الله ، هذا شرك أكبر ...

قال "والشافع مُكرّم" لأن الله رضي قوله وعمله فأذن له أن يتوسط للخلق عنده جل وعلا ، والمشرك ليس مكرمًا فلا شفاعة له أبدًا ...

والله لا يحتاج لأحد أن يشفع عنده لأحدٍ ، إنما هذا إكرام للشافع ورحمة للمشفوع ...

"والمشفوع له من رضي الله قوله وعمله بعد الإذن" ، إذن : ذكر شرطين لكون الشفاعة شرعية مرضية :

الأول : أن يكون الذي يُشفع له مرضيًا عند الله في قوله وعمله وهذا هو الموحد ، ولذلك جاء في الحديث "من أسعد الناس بشفاعتك يا رسول الله ؟ قال : من قال لا إله إلا الله خالصًا من قلبه" ، إذن الكفار لا شفاعة لهم لأنهم لا يقولون (لا إله إلا الله) والمنافقون لا شفاعة لهم لأنهم لا إخلاص معهم ، حينئذٍ : تثبت الشفاعة للموحدين وإن كانوا عصاة ...

"بعد الإذن" أي بعد أن يأذن الله تعالى بذلك ، وهو الإذن الكوني ، يعني : أن يأذن الله سبحانه بوقوع ذلك في كونه ...

كما قال تعالى "من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه" فهذا نص في اشتراط الإذن من الله جل و علا ...

وجمع الله الشرطين في قوله "وكم من ملك في السماوات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى" الآية ، يرضى عن الشافع والمشفوع ويأذن بالشفاعة ...

ولهذا قال سبحانه "قل لله الشفاعة جميعا" الآيات ..

فهي حقه وملكه فلا يعطيها إلا لمن رضي عنه ...

قال "القاعدة الثالثة أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ظهر على أناس متفرقين في عباداتهم ، منهم من يعبد الملائكة ومنهم من يعبد الأنبياء والصالحين ومنهم من يعبد الأشجار والأحجار ، ومنهم من يعبد الشمس والقمر ، وقاتلهم الرسول -صلى الله عليه وسلم- ولم يفرق بينهم" ...

هذه هي القاعدة الثالثة ، وهي قطعية يقينية باستقراء نصوص القرءان والسنة ، فقد بعث الله نبيه -صلى الله عليه وسلم- إلى أناس متفرقين في عبادتهم ، منهم من كان يعبد الشمس والقمر ، ومنهم من كان يعبد الأنبياء والملائكة والشجر والحجر ، فأمره بقتالهم جميعا ، ولم يفرق بينهم ، بل قاتلهم جميعًا "وقاتلوا المشركين كافة" التوبة ، "المشركين" (أل) تفيد العموم ، أكد العموم بقوله "كافة" أي : جميعًا ، فدلّت الآية على أمرين :

الأول : وصف وهو "المشركين" ، والثاني : حكم وهو القتل ...

إذن : إذا وُجد الوصف وُجد الحكم ، وهذا أمر بقتل كل مشرك أيا كان نوع شركه ولهذا قاتلهم النبي -صلى الله عليه وسلم- ولم يفرق بينهم ...

وقوله تعالى "المشركين" هذا وصف دال على أن الشرك الأكبر يجب قتل فاعله ، سواء كثيرًا أو قليلًا ، أما فاعل الشرك الأصغر فهو مسلم بالإجماع ولا يدخل في الوصف ، وفاعل الشرك الأكبر يدخل في قوله -صلى الله عليه وسلم- "من بدل دينه فاقتلوه" ...

وقوله تعالى "المشركين" هذا حكم عام في كل من أشرك ، سواء كان المُشرَكُ به مما يعقل أو مما لا يعقل ، أرضيًا أو سماويًا ، جنيًّا أو إنسيًّا ، صالحًا أو فاسدًا ، إذا ثبت وصف الشرك وصرف العبادة لغير الله ثبت الحكم ...

والعرب الذين عايشهم النبي -صلى الله عليه وسلم- وبعثه الله إليهم ، كانت آلهتهم متعددة ، يعبدون الأنبياء والصالحين ، ويعبدون الجن ، و الشمس والقمر ، ومع اختلاف هذه المعبودات إلا أن الوصف واحد وهو الشرك ، فلهذا قاتلهم بلا تفريق ...

هذا هو مراد الإمام بهذه القاعدة ..

والمشركون الذين يقولون نحن لا نعبد الأشجار ولا الأحجار ولا الصالحين ، ولكن نستغيث بهم ونتوسل إليهم ، ليشفعوا لنا عند الله ، هؤلاء يدخلون في الحكم ، لأن فعلهم هذا هو عين فعل المشركين الأول ...

حينئذٍ : حكم الله عليهم جميعًا أنهم كفار مشركون ...

وقوله تعالى "وقاتلوا المشركين" آية التوبة ، هذا وصف لكل من أشرك ، حينئذٍ نقول : كل من تلبس بشرك فلابد أن يُشق له من ذلك الحدث وصفًا ، فيقال مُشرك ، ويجب تنزيل الحكم عليه ، ومن قال يُعذر بالجهل فقد فرّق بين الوصف والحكم ، لأن كل من وقع في حدث فلابد أن يُشتق له من ذلك الحدث وصف واسم ، هذا باللغة والعقل ، خلافًا للأشاعرة ومن وافقهم ، فإذا نام نقول نائم ، فلا يمكن أن يوجد النوم ولا نقول نائم أو القيام ولا نقول قائم ، وهذا واجب بدلالة العقل واللغة ولا ينازع فيه إلا الجهّال ...

فحينئذٍ : من تلبس بالشرك نقول مشرك ..

قال "والدليل" أي على تسوية الحكم بتسوية الفعل ، أي والدليل على قتل المشركين بلا تفريق بينهم ، "وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله " الأنفال ..

"وقاتلوهم" هذا عام يشمل كل مشرك بلا استثناء في أي مكان وزمان ، "حتى لا تكون" حتى لا يوجد ، حتى لا تحصل ، وحتى بمعنى : إلى أن ، تفيد الغاية ، و "فتنة" يعني شرك ، فلأجل أن يزال الشرك وجب القتل ، وهو قتل معنيًّا ، له غاية يقف عندها ، وهي ارتفاع الشرك ، فالقتال لا نكف عنه إلا إذا ارتفع الشرك ، وُجد الشرك وُجد القتال ، ارتفع الشرك ارتفع القتال ، "ويكون الدين" أي العبادة والعمل ، "كله لله" فلا يصرف لغيره عبادة ولا طاعة ولا قربة ، ويكون أمر الناس على إخلاص العبادة لله ..

وتفسير الفتنة بالشرك هو قول ابن عباس والضحاك وعامة المفسرين بل هو إجماع ..

ويشهد لهذه القاعدة وهذا الأصل قوله -صلى الله عليه وسلم- "أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله" البخاري ومسلم ...

وهذا الحديث تفسر به الآية ...

ودليل الشمس والقمر "ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر . لا تسجدوا للشمس ولا للقمر . واسجدوا لله الذي خلقهن . إن كنتم إياه تعبدون" فصلت ...

أي والدليل على أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بعثه الله إلى أناس منهم من يعبد الشمس والقمر فذكر الآية ، وذكر ابن القيم أن هذا المذهب _عبادة الكواكب_ هو مذهب الصابئة قوم إبراهيم الذين ناظرهم وكسر حجتهم بعلمه ، فقد جاء إلى العرب من هؤلاء ..

وهذا المذهب قديم في العالم وأهله طوائف شتى ، فمنهم من يعتقد أن الشمس ملك من الملائكة ، لها نفس وعقل ، وهي التي القمر والكواكب والنور ، وهي عندهم مَلِك الفلك فتستحق التعظيم والسجود ، إذن هم بهذا يعتقدون حلول الأرواح والتناسخ في الكواكب وهذه شبهة عظيمة ...

قوله "ومن آياته" أي العلامات التامة على وحدانيته "الليل والنهار" ، أي أنهما يتعاقبان ، فيأتي كل واحد منهما عقب صاحبه ولا يجتمعان أبدًا ولا يرتفعان ، "والشمس والقمر" بما فيهما من المنافع والمصالح التي تحصل للعباد ، فهي آيات وبراهين على الوحدانية ، "لا تسجدوا للشمس ولا للقمر" هذا نهي عن السجود للشمس والقمر لأنهما من مخلوقات الله تعالى ، "واسجدوا لله الذي خلقهن" أي أنهما من سائر المخلوقات ، وما فيهما من نفع للخلق فإنما هو بأمر الله تعالى ، فوجب أن نعبد خالق الشمس والقمر ، لا الشمس والقمر لأنهما مخلوقتان لله كسائر خلقه ، "إن كنتم إياه تعبدون" أي : إن كنتم تعبدون الله وتوحدونه ، فمن توحيده ألا تسجدوا لمخلوق من مخلوقاته ...

قال "ودليل الملائكة (ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا)" أي : والدليل على أن من بُعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- منهم من يعبد الملائكة في هذه الآية ، وهذا موجود في النصارى ، يعظمون الملائكة ويجعلونها أربابا ...

وهذا إشراك وكفى بقوله بعدها "أيأمركم بالكفر" ...

ودليل الأنبياء "وإذ قال الله يا عيسى بن مريم ءأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله . قال سبحانك " الآية ...

وهذه في النصارى الذين حرفوا العبادة لرسولهم وعبدوه من دون الله وفيهم بُعث رسول الله -صلى الله عليه وسلم- ، وقد عبدوا أمه أيضًا بنص الآية وإن أنكروه ...

فمن ولدت إلاهًا لزم أن تكون إلاهة ..

ودليل الصالحين "أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه" الإسراء ...

والمعنى : أولئك الصالحين الذين يدعونهم من دون الله يطلبون ما يوصلهم إلى ربهم ليتقربوا إليه طلبًا لرحمته وخوفًا من عذابه ، فهذا حال المدعو ، فمن باب أولى يكون هو حال من دعاه وهذا إنكار من الله عليهم ...

وقد نزلت الآية في قوم من العرب يعبدون الجن ، فأسلم الجن وصاروا غير راضيين بالعبادة ، وقيل الملائكة وقيل عزير وعيسى ..

فهذه المعبودات لا ترضى بذلك ، وتتبرأ من عابديها ، بل وتطلب ما يوصلها إلى الله من الوسائل التي أمر بها ورضيها ..

والآية دليل على أن من العرب من كان يعبد صالحي الجن والإنس ...

قال "ودليل الأحجار والأشجار (أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى) " أي : الدليل على أن من بُعث فيهم النبي -صلى الله عليه وسلم- كانوا يعبدون الأحجار والأشجار ثم ذكر الآية ...

وهذه ثلاثة طواغيت من طواغيت العرب التي كانوا يعبدونها ...

قوله "أفرأيتم" يعني : هل هي مما أوحى الله به لتُعبد ، أم أنكم اختلقتم ذلك من عند أنفسكم ؟ ، لا يشك أنه الثاني لأن الله لا يأمر بشرك ...

"اللات" وهو رجل يَلِت السويق للحاج يعني يأتي بالعجين عند العرب ...

لما مات هذا الرجل قال عمرو بن لحي للناس : إنه لم يمت بل دخل في الصخرة ، فعبدوها الناس ، وكانت ثقيف عكفوا عليها وعبدوها من دون الله تعالى ...

ولما أسلمت ثقيف بعث الرسول -صلى الله عليه وسلم- المغيرة بن شعبة فهدمها وحرقها ...

"العزى" كان هناك رجل يسمى ظالم بن أسعد ، لما رأي قريشًا تطوف بالكعبة ويسعون بين الصفا والمروة ، أخذ حجرًا من الصفا وحجرًا من المروة ورجع إلى قومه ووضع الحجرين ، وبنى لهما بيتًا وعبده هو قومه وطافوا به وحجّوا إليه بدلًا من الكعبة ، فعظّم قريش هذا الوثن وعبدوه ...

وقد هدمها خالد بن الوليد في العام الثامن من الهجرة في ٢٥ رمضان ...

"مناة" وكانت صنمًا عند ساحل البحر يعبدونها من دون الله ويعتقدون أنها تمطرهم ويجلب لهم الخير فعبدوها وقد هدمها علي رضي الله عنه بعد فتح مكة ، وكانت مناة لبني هلال ...

الخلاصة : أن هذه الأصنام كانت تُعبد من دون الله وكانوا يعتقدون أنها بنات الله وقد ورد في الآية ذكر ذلك ...

وحديث أبي واقد الليثي "اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط" ، الشاهد هنا أنهم قالوا (وللمشركين سدرة "شجرة" يعكفون عليها وينوطون بها "يعلقون أسلحتهم") هذا دليل عبادة الأشجار والأوثان ...

القاعدة الرابعة "أن مشركي زماننا أغلظ شركًا من الأولين ، لأن الأولين يشركون في الرخاء ويخلصون في الشدة ، ومشركو زمننا شركهم دائمًا في الرخاء والشدة ، والدليل "فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجّاهم إلى البر إذا هم يشركون" محمد ...

هذه ليست قاعدة ، لأنها لا تفيد في تمييز المشرك من المسلم والعكس ..

لأننا لو فصلنا لوجدنا أن المشركين الأوائل ردّوا كل ما جاء به رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إضافة إلى إشراكهم ، ومشركو زماننا يقرّون بالشهادتين و مجمل الإسلام ويصلون ولكن وقع منهم صرف عبادة لغير الله تعالى ...

حينئذٍ : هذه ليست قطعية بل اجتهاد من الإمام رحمه الله ...

انتهى ولله الحمد ،،